# نبوّةٌ في صحراء

# نبوّةٌ في صحراء

رواية

**لطفي حداد**

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لطفي حداد Email: lhadadrc@aol.com



**إلى باولو وجماعته**
**في دير مار موسى الحَبَشيّ**
**عسى أن تبقوا دائماً**
**نبوّةً في صحراء**

الموت، عن الرجاء، وكان الزمان يحفظ كل شيء في قلبه الأكبر. وفي ذلك اليوم ودعته متأكداً أنني سأعود عما قريب..

## ـ ٢ ـ

أن تقف أمام الصمت عارياً فارغاً.. كالأغصان التي لا تحمل شيئاً، كالأرض الجرداء، كالصخور الصلدة، كالكهوف الجوفاء.. وتسمحَ للروح أن تتدفق... أن تستقبل الطبيعة، الهواءَ والبرد والجفاف وتقلبات الجو ومزاج الغيوم..

أن تشعر كم أنت فقير وعاجز وضعيف..

وفي الوقت نفسه أن تحمل في داخلك تاريخ البشرية المليء بالحب والإخفاق والأمل والضياع..

أن تحمل مجانية الله.. وفيض خيراته ونبض حبه..

أن تكون هناك بعيداً عن بيتك وعملك ونجاحك ومملكتك ومعارفك..

أن تكون وحيداً.. رجلاً أعزل أمام الله.. وفي قلبه..

أن تكون وتشعر وتعيش كل ذلك.. هذه هي



الحياة في الصحراء.

كانت فكرة أن أرمي نفسي لأعيش حياة الصحراء ولو لفترة قصيرة هاجساً يتكرّس كل يوم أكثر.. حتى جاء صباح حزمت فيه حقيبة الظهر وشددت الرحال..

قررت أن أسير الطريق كلها من مركز المدينة إلى الدير.. دون أن أستعين بسيارة.. كانت الفكرة تبدو جنونية، لكن آخرين قد فعلوا ذلك.. ويظهر أن للسير في الصحراء متعة خاصة.. شعرت أن الساعات الخمسة التي سأقضيها على الطريق الرملية الوعرة، أتسلق الهضاب وأعدو على المنحدرات، ستكون كافية لأخلع عني الهموم اليومية.. وأخرج من مملكة المدينة والناس والصخب.. وأتحرر من قيود المدنيّة والتقاليد.. وأصبح نفسي أكثر.

رحت أتأمل كل شيء في طريقي.. الأعشاب البرية الشائكة، الصخور التي حفرت فيها الطبيعة أشكالاً مختلفة، امتداد الأفق الرائع، بعض الغيوم التي تتجوّل في السماء تبحث عن تيّار يفجّرها لتعطي ذاتها، عصافير قليلة ترحل من مكان لآخر تبحث عن سر بقائها..

وتذكّرت كلمات المسيح «لا تخافوا.. حتى عصافير السماء لا يسقط واحد منها دون إرادة الله»..

بدأت أشعر أنني أمتلئ بالرجاء.. ويفرغ قلبي من الضغوط.. ويمتلئ بموسيقى الربيع. هناك نغمات أزلية تعزفها الطبيعة.. أجمل من كل السمفونيات، لكنها تحتاج إلى آذان مصغية.. هي هادئة وخافتة ولا تفرض نفسها لذلك لا يسمعها الجميع..

ويبدو أن سرّ الله هو في الغياب.. هذا الحضور الأمثل للحب حتى لا فرض ولا ضغط ولا صخب.. بل تدفق خصب لا ينضب.

كنت أقف أحياناً لأشرب قليلاً من الماء.. وأجلس لأستريح دقائق قبل أن أعود لمتابعة سيري..

شعرت أن الله لا يطلب منا أن نركض.. أن نتكالب، إلى درجة الإعياء من أجل أهداف ستزول يوماً ما..

هو يريد أن نستمتع بالحياة.. أن نصغي لسمفونية الرجاء تُعزَفْ في كل لحظة.. أن نسير على وقع قلوبنا دون إجهاد ودون قلق..

حين نخرج من مدار الحب يبدأ القلب بالقلق ويصيبنا الإعياء. وهاتان العلامتان تدلاّن بشكل أكيد على أننا خرجنا من مدار الله.. القلق والإعياء.

لماذا لا تقلق هذه العصافير مثلنا..؟!!



وهذه النباتات العطشى لماذا لا يصيبها الإعياء؟!!

أتعلم الآن أن الطبيعة حاضرة بصبر أمام الحب تنتظر منه كل شيء.. هذه الآلاف من السنين من الثقة المتبادلة بين الطبيعة والله شيء يدعو للرجاء..

لم أكن أشعر بجسمي كثيراً.. كأنه قد خفّ وزنه حين تداعت أفكاري وفرغت أعماقي.. مرّ الزمن بسرعة ولم أعد أعرف قيمة الوقت.. الوقت هو للمدينة، أما هنا في الصحراء فاللحظة أبدية.. والحياة تكتسب قيمتها من الهنيهة الحاضرة.. هنيهة الحب الأزلية.

## ـ ٣ ـ

بدأ الدير يلوح في الشق بين الجبلين.. فأدركت أنني أقترب من الفراغ المليء والوحشة المعزّية..

تابعت سيري وأنا أشعر بالأرض ترحب بي، ويبدو أن الصخور تعرف أننا كلانا تراب يصنعه الحب ليفيض ويفوح ويعيش..

اقتربت من الباب الصغير، حنيت رأسي ومشيت قليلاً حتى وجدت نفسي في ساحة الدير..

كنت قد أخبرت رأفت بنيتي أن أعيش بعض الأيام مع الصحراء ونفسي.. وكنا قد اتفقنا أن يكون ذلك قبل

عيد الفصح.

تنحّى رأفت بي جانباً وتكلمنا قليلاً عن أمور الحياة.. ثم شعرت أنه قد آن الأوان لأبدأ المغامرة..

قلت له:

- أنا هنا بين يدي الطبيعة.. وكلي استعداد لأن أعطي ذاتي..

ابتسم رأفت وقال بهدوء:

- لا أعتقد أنك مستعد لأن تعطي ذاتك.. هذا ليس قراراً منك.. إنه هبة من الله.

ابتسمت وأدركت قائلاً:

- أحب صدماتك لتفكيري الضيق.. إذن على الأقل أنا هنا بين يدي الله.

ربت رأفت على كتفي وقال:

- الفرق بين الوجود والحضور كبير.. ثم إن الله ليس محدوداً هنا..

رددت ببعض عصبية متسائلاً:

- هل يمكن أن نتجاوز اللغة إلى الروح؟!!

ضحك رأفت بصوته الخشن ضحكة عالية ثم دعاني أن أسير معه إلى الخارج..



بدأنا نتمشّى في الجبال، وراح يحدثني على مهل قائلاً:

- صحيح أن الروح أوسع من اللغة.. لكن كل شيء نقوله يعكس ما نفكر وما نعيش..

نحن نعيش في قوالب كثيرة منها اللغة.. وهذا القالب واسع صلب، ممتد في التاريخ وفي التقاليد.. هو جزء منا شئنا أم أبينا، وإذا أزلته نهائياً فأنت بشكل ما ميت عن الواقع..

مشكلة اللغة أنها دخلت لا وعينا.. فالألفاظ التي نستعملها هي تاريخ البشرية كلها.. تجاربها ونموها وفشلها..

فالله كلمة مرّت بآلاف السنين من خبرات البشر مع الأصنام والطبيعة العنيفة ثم الأديان والأفكار الجديدة داخلها على مرّ العصور.. ثم تفكير آبائنا ومجتمعنا.. كل هذا الكم الهائل من الحياة قد دخل لا وعينا وقليلاً من وعينا ليشكّل هذه الكلمة.. وهو ينمو كل يوم وينضج أو يتجدّد ويموت..

لذلك إذا كنت تريد أن تعيش هذه الأيام بعمقها هنا في الصحراء.. عليك أن تطلب من الروح أن ينبه

حواسك، عينيك.. أذنيك.. ذوقك.. لمسك وكل جسدك لتشعر بالحياة بطريقة مختلفة، ليس لتهدم القوالب بذكائك المفكّر.. بل لترى وتسمع وتلمس وتتذوّق كل شيء بحضارة المحبة.

ـ ٤ ـ

كانت هذه الكلمات أجمل بداية يمكن أن أباشر بها رحلتي مع نفسي في الصحراء..

اقترحتُ على رأفت أن أبتعد كلّياً عن الناس، لأكون أمام الصمت والفراغ.. فدلّني على مغارة كان قد قضى فيها هو نفسه بضعة أيام في الماضي.. وكانت ـ تقليدياً ـ تُدعى «مغارة الحايك».

جمعت ما أحتاج إليه، وحاولت أن يكون أقل ما يمكن.. مصباحين زيتيين، بعضاً من الكعك.. والماء، وتوجهت صوب المغارة.. تسلّقت الصخور حتى وصلت ذلك التجويف الكبير نسبياً..

كانت الشمس تميل عن كبد السماء، وحين جلستُ على الأرض هناك.. شعرتُ ببرودة محبّبة وبنسمات عذبة بين حين وآخر..

أحسستُ أيضاً بأنني أفقد أشياء من نفسي..



أخسر.. أنتزع.

كنت قد قرّرتُ البقاء ليلتين هناك.. ولم يكن لديّ شيء أعمله أو أفكّر فيه.. وللمرة الأولى في حياتي وجدت نفسي أمام الفراغ والصمت.. قال لي رأفت جملة واحدة قبل ذهابي:

ـ أشعر بفقر الله.. لا تفكر بل أشعر.. وحاولْ أن تعيش فقر الله لتدخل في صميمه..

كان هذا المزج بين كلمتي الله والفقر غريباً عليّ.. حاولتُ أن أستعمل ذكائي لأفهم..

تذكرتُ فجأة قصة القديس أغوسطينوس وهو يتمشّى على شاطئ البحر يفكّر في الله.. وإذ به يرى طفلاً يملأ سطلاً من ماء البحر ويفرغه في حفرة قد صنعها في الرمال.. وهزئ أغوسطينوس بنفسه لأنه تخيّل حاله كحال هذا الطفل يحاول أن يستوعب الله في فكره المحدود كهذه الحفرة..

عندما سمعتُ هذه القصة للمرة الأولى أعجبتني، وأحسست بأن هذا حلّ معزٍّ لسر الله..

أن نكتفي بعدم الفهم.. أن نقبل بمحدوديتنا..

لكنني هذه المرة أمام الصمت والفراغ.. وأمام

هذا السؤال الصعب.. فقر الله!! لم أشعر بالرضى من قصة أغوسطينوس..

وقلت لنفسي:

ـ إذا كان الله يحترمنا فلماذا يخلقنا أغبياء، ومحدودي الفهم؟!!

إذا كان الله محبة فعليه أن يشركنا في سرّه.. لأن المشاركة هي من صميم المحبة!!

إذن حاولتُ من جديد أن أفكّر كيف يكون فقر الله.. نظرت في الأفق البعيد.. كان كل شيء واسعاً وممتداً. فكرت بجميع الصخور والرمال والحيوانات والأعشاب البرية التي يمكن أن توجد أمامي.. فكرت بامتداد السماء والغيوم والعصافير والفراشات..

فإذا كانت هذه القطعة المحدودة من صحراء بلاد الشام تحوي كل هذا الغنى والسخاء الإلهي، فكيف إذا فكرت بكل المدن والصحارى.. كل البلاد.. كل القارات والمحيطات!!

كيف إذا تخيّلت أن هذه الخيرات التي لا تحصى على كوكب الأرض هي جزء لا يذكر أمام غنى ملايين الكواكب!!



ما أوفر غنى الله.. ما أوسع سخاءه!!

لماذا لم يخلق نوعاً واحداً من الأسماك والطيور والأشجار؟!!

لماذا كل هذا التنوّع والوفرة؟!..

لماذا كل هذا البذخ والتدفق؟!

ما أوفر غنى الله.. وما أوسع سخاءه..

كانت الساعات التي قضيتها في التفكير تقودني أكثر فأكثر إلى غنى الله.. وحين حلّ المساء، كنت قد تعبت وشعرت أنني لا أتحمّل هذا التناقض.. هناك شيء خاطئ في هذا التعبير.. لا.. لا يمكن لله أن يكون فقيراً!!

أضأت المصباح الزيتي.. ودخلت إلى عمق المغارة..

حاولت أن أجد أفضل الأمكنة والوضعيات للنوم.. كان الطقس رائقاً ونسيم عليل يمرّ على وجهي بين حين وآخر ينعشني.. بدأت أشعر بالإرهاق، لقد كان يوماً طويلاً. فبعد ذلك المشوار الطويل على قدميّ بين مركز المدينة والدير، كانت قواي قد خارت، وحلّ التعب بشدة.. ولم يمتد بي الوقت حتى غفوت فجأة غارقاً في النوم.

لا أتذكر أنني حلمت تلك الليلة.. لكنني أفقت باكراً جداً.. كان ضوء الفجر خافتاً، وبرودة خفيفة تملأ المكان.. تحرّكت في مكاني. كان جسمي متيبّساً قليلاً، وشعرت بوجع في أسفل ظهري.

تذكرت لوهلة المرأة التي أحب.. لا أعرف لماذا؟!!

وتذكرت كلمات رأفت لي.. لا تفكّر بل اشعر.

وتداخلت الصورة ببعضها وانتابني شعور غريب..

وفهمت في لحظة واحدة فقر الله!!

فكما أنني أفتقد المرأة التي أحب.. وبدونها أنا لا شيء.. وأشعر أنها كل شيء، وأنني فقير بحبها.. وأن حبي لها يجعلني فقيراً، لا أملك حتى نفسي لأنها معنى وجودي..

كذلك الله.. شعرت أن الله لفرط حبه، ولأنه حب خالص، وليس هو إلاّ حب خالص، فإنه يجد نفسه فقيراً أمام حبّه لي.. حبه لي يجعله ينتظرني، ويجعلني أبحث عنه في كل شيء.. عطشه الدائم نحوي يبحث عن عطشي ليرويه..

جدول فرحه يبحث عن صحراء موتي ليجري فيها بتدفق.



اقتربت من حافة المغارة.. ونظرت في الأفق البعيد.. شعرت أنني اكتشفت شيئاً رائعاً في حياتي..

فرفعت صوتي صارخاً:

ـ أشكرك يا الله على هذا الصباح..

أشكرك يا الله على الحب الذي يفقّرنا.

## ـ ٥ ـ

أكلت بعضاً من الكعك وشربت قليلاً من الماء.. شعرت بانتعاش وطاقات تريد أن تفجّر اللحظة.. وتشعل المكان.

نزلت من المغارة واتجهت نحو الوادي..

كانت صورة أب محبّ.. غاية في المحبة، تتشكّل داخل قلبي.

صورته تشبه إلى حد بعيد لوحة «رامبرانت» التي تمثل «استقبال الأب للابن الضال».

«فالأب يظهر متوشحاً بالبهاء المتواضع والجلال البسيط.. إنه كالألف في البداية، منتصبٌ بشموخٍ منكسر.. إنه بداية كل حياة وكل خير..

منتصبٌ مع انحناء بسيط كالقوس الذي يقوم عليه

كل بناء..

وجهه يحمل سرّ الأبوّة.. يبدو وكأنه الانتظار والدموعُ قد ذهبت بضوء عينيه، فهو منكسرُ الجفنين، ذابت عيناه من التحديق في ليالي الغربة والبعد.. يترقّب رجوع ابنه، قلقاً عليه أن لا يعود. أما الابن فرأسه منطمرٌ في أحشاء والده، وعنقه مستسلم كمن حكم عليه بالموت.. ثيابه مهلهلة متجعدة، كشراع مركب غريق عذبته الريح العاتية.

يسند الابن خده إلى بطن والده، كأنه يتمتم ولادة كانت قبلُ ناقصةً، ويصغي إلى قلب والده يقول:

«أنت ابني وأنا اليوم ولدتك، وإذا نسيت أم ابنها ثمرة أحشائها فأنا لا أنساك، لقد حفرت اسمك على كفّ يدي فلا أنساك..».

شعرت كم أن الحب يجعلنا فقراء أمام الأحبة..

شعرت كم نحن بعيدون عن فقر الله.. وكم أن الله مختلف عما نظن ونتصوّر.

مشكلة الإنسان هي التفكير.. وحاجته القصوى هي الشعور. أن نعيش على مستوى قلوبنا.. أن نفهم الحياة انطلاقاً من تجاربنا الحقيقية مع بعضنا ومع الطبيعة.



## ـ ٦ ـ

قضيت يوماً رائعاً بين الجبال. صادفت راعياً مع قطيع من الماعز، أشعرني كم هو قريب من الحقيقة، لأنه يعيش على مستوى القلب لا حسب ما يقوله عقله. بالنسبة له حب الله شيء يفهمه بالفطرة ولا يحتاج إلى فلاسفة ليشرحوه له..

وإنه يفهم سر وجوده في الآخر، في الطبيعة، في الحياة، في الله. عدت إلى المغارة قبل أن تميل الشمس للمغيب.. كانت صورة المرأة التي أحب لا تفارقني.. وفي الوقت نفسه صورة الأب يستقبل ابنه بعد طول غياب، حاضرةً ومشرقةً داخل كياني.

كنت سعيداً لأنني بدأت أعيش حسب ما أشعر لا حسب ما أفكر..

نمت تلك الليلة بسلام عميق.. وحين استيقظت في الصباح توجهت نحو الدير، أخبرت رأفت عندما التقيت به عما عشت وشعرت، فقال مشجعاً:

ـ يبدو أنك قد بدأت تتذوق الحياة!!

رددت مبتسماً:

ـ هل تعني أنني لم أكن أتذوّق من قبل؟!

ربّت على كتفي واستدرك قائلاً:

ـ قيمة الحياة تأتي من هنيهات الحب التي نتذوقها بصدق.

قطبت حاجبيّ وقلت منزعجاً:

ـ إذن مرّت حياتي كلها دون قيمة ودون معنى!!

نظر في عيني بطيبة، وقال مشجعاً من جديد:

ـ أنا متأكد أنّك عشت هنيهات حب كثيرة، لكنك لا تذكرها الآن.. في الأبدية ستراها أمام عينيك دائماً.. فلا تقلق.

انبسطت أساريري.. وقلت:

ـ ما هي إذن الخطوة التالية؟!

ابتسم رأفت، ونظر في الأفق البعيد.. ثم قال بهدوء:

ـ بما أن غداً هو ذكرى الجمعة الحزينة، حاول أن تشعر بفرح المسيح وألمه.

* * *